مجلة أنثروبولوجيا ISSN: 2437-041X
مجلد: 12 عدد: 01 السنة 2026 E-ISSN:2588-2325

من رهبة الطبيعة إلى القداسة: دراسة في نشأة فكرة الإله لدى الشعوب القديمة

From the Awe of Nature to the Sacred: A Study of the Origins of the Concept of God among Ancient Peoples

إسلام شرقي* جامعة يحي فارس - المدية islamchergui1507@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2026/04/24 تاريخ القبول: 2026/06/24 تاريخ النشر: 2026/06/30

ملخص:

يتناول هذا البحث مسار نشأة فكرة الإله لدى الشعوب القديمة من خلال علاقتهم بالطبيعة، إذ وجد الإنسان القديم نفسه في مواجهة ظواهر طبيعية مهيبة مثل الرعد والبرق والفيضانات وتعاقب الليل والنهار، وهي ظواهر أثارت في نفسه الخوف والدهشة معًا، وقد دفعه عجزه عن تفسيرها إلى ربطها بقوى خفية تتجاوز قدراته، فبدأت تتشكل عنده تصورات دينية بدائية منبثقة من رهبة الطبيعة، تحولت تدريجيًا إلى أساس لفكرة المقدس والإيمان ووجود قوى خفية تتمثل في الآلهة والتي تتحكم في الكون.

ويبين البحث أيضًا كيف تطورت هذه التصورات مع ظهور الحضارات القديمة، إذ أسهمت الأساطير والميثولوجيا في تفسير أصل وجود الإنسان والكون من خلال ربط وجودهما بفكرة الآلهة، كما اكتسبت عناصر الطبيعة مثل الأرض والسماء والشمس والقمر والجبال دلالات رمزية مقدسة داخل المعتقدات الدينية، وظهرت طقوس وسلوكيات دينية تعكس الإيمان بالروح والعالم الآخر، وهكذا انتقل الإنسان تدريجيًا من الخوف والرهبة من الطبيعة إلى تأليهها ومنحها معنًا مقدسًا داخل منظومة فكرية ودينية متكاملة.

الكلمات المفتاحية: الطبيعة، الدين، الآلهة، المقدس، الطقوس.

* المؤلف المرسل (OORCID ID)

Abstract:

This study examines the emergence of the concept of deity among ancient peoples through their relationship with nature, early humans faced awe inspiring natural phenomena such as thunder lightning floods and the cycle of day and night, which evoked both fear and wonder, their inability to explain these events led them to attribute them to hidden forces beyond their control gradually, these primitive religious perceptions, born from natures awe, became the foundation for the sacred faith, and the notion of gods governing the universe.

The study also shows how these perceptions evolved with ancient civilizations, myths and mythology explained human and cosmic origins by linking them to gods, natural elements earth, sky, sun, moon and mountains gained sacred symbolic meanings, and religious rituals reflected belief in spirits and the afterlife, gradually humans shifted from fearing nature to deifying it within an integrated sacred worldview.

Keywords: Nature, Religion, gods, The sacred, Rituals.

مقدمة:

تُعد الظاهرة الدينية من أقدم الظواهر الإنسانية التي ارتبطت بنشأة الوعي البشري ومحاولاته الأولى لفهم العالم المحيط به وتفسير مظاهره المختلفة، فمنذ العصور الأولى وجد الإنسان نفسه في مواجهة قوى الطبيعية كالرعد والبرق والفيضانات وتعاقب الليل والنهار، وهي ظواهر لم يكن قادرًا على تفسيرها وفق معارفه المحدودة آنذاك، الأمر الذي دفع به إلى ربطها بقوى خفية تتحكم في الكون وتتحكم في مصيره، ومن هنا بدأ تشكل الفكر الديني في صور بدائية بسيطة، ارتبطت أساسًا بالطبيعة وعناصرها المختلفة، والتي اكتسبت مع مرور الزمن طابعًا رمزيًا مقدسًا في المعتقدات القديمة.

مع تطور المجتمعات البشرية وظهور الحضارات الأولى، أخذت هذه التصورات الدينية تتبلور في شكل أساطير وميثولوجيا فسّرت أصل الكون ونشأة الإنسان والعلاقة بين العالم المرئي والعالم الغير المرئي، كما ظهرت مجموعة من الرموز الدينية المرتبطة بعناصر الطبيعة مثل الأرض والسماء والشمس والقمر والجبال، والتي اكتسبت دلالات روحية عميقة في الفكر الديني لدى الإنسان القديم، إذ تحولت هذه العناصر من مجرد ظواهر طبيعية إلى رموز مقدسة تعكس تصوراته عن الإله وفكرة الخلق والعالم المحيط به.

وانطلاقًا من ذلك تتمحور إشكالية هذا البحث حول التساؤل الرئيس: إلى أي مدى أسهمت الطبيعة وعناصرها المختلفة في تشكُّل فكرة الإله لدى الإنسان القديم، وما الدور الذي أدته الرمزية الدينية في بناء معتقداته وطقوسه الدينية؟.

ويتفرع عن هذه الإشكالية مجموعة من الأسئلة أبرزها:

- ما المقصود بالدين والرمزية الدينية والمقدس في سياق الفكر الإنساني القديم؟
- كيف أثرت الظواهر الطبيعية في تشكل التصورات الأولى لفكرة الإله؟
- ما الدور الذي أدته الأساطير والميثولوجيا في تفسير أصل الإنسان والعالم المحيط به؟
- وكيف تجلّت الرمزية الدينية لعناصر الطبيعة في معتقدات الحضارات القديمة؟

وينطلق هذا البحث من فرضية مفادها أن الإنسان القديم محدود المعارف والمتأثر بالظواهر الطبيعية المحيطة به قد سعى إلى تفسيرها من خلال ربطها بقوى خارقة، الأمر الذي أدى إلى نشوء تصورات دينية بدائية اتخذت من عناصر الطبيعة رموزًا مقدسة داخل منظومته الفكرية، كما يفترض البحث أن هذه الرمزية الدينية أسهمت في تشكيل الوعي الجماعي للمجتمعات القديمة، وظهرت بوضوح في الأساطير والطقوس والسلوكيات الدينية التي مارستها تلك المجتمعات.

يهدف هذا البحث إلى إبراز العلاقة القائمة بين الإنسان والطبيعة ونشأة فكرة المقدس من منظور أنثروبولوجي، وكذا الكشف عن الدور الذي أدته الرمزية الدينية في تفسير الظواهر الطبيعية وبناء المعتقدات والأساطير، إضافة إلى تسليط الضوء على تطور بعض الطقوس والسلوكيات الدينية المبكرة التي ارتبطت بفكرة المقدس والعالم الآخر.

ولتحقيق هذه الأهداف اعتمدت في البحث على المنهج التاريخي التحليلي، وذلك من خلال تتبع نشأة فكرة الإله من خلال التصورات الدينية والمعتقدات لدى الإنسان القديم، وكذا تحليل النصوص التاريخية والأنثروبولوجية التي تناولت هذه الظاهرة، وذلك بهدف الوصول إلى فهم أعمق لتطور الفكر الديني لدى الحضارات الإنسانية الأولى.

1- المفاهيم المتعلقة بموضوع الدراسة:

1- 1: مفهوم الدين والرمزية الدينية:

أ- الدين: جاء في لسان العرب لابن منظور أن الدين لغة يقصد به الطاعة والخضوع (الدين، 2000، صفحة 170)، أما في المعجم الوجيز للغة العربية فيعرَّف الدين لغة على أنه اسم لجميع ما يُتديَّن به، وجمعه أديانٌ، والديانة هي العبادة والطاعة (العربية، 1994، صفحة 241)، ومن خلال هذه التعريفات نستنتج أن الدين لغة يُقصد به الطاعة والخضوع والانقياد.

أما اصطلاحًا فقد تعددت المفاهيم والتعريفات حول مفهوم الدين، ويعود هذا الاختلاف لوجهة النظر التي يؤمن ويعتقد بها صاحب التعريف، فهناك من يرى أن الدين هو العادة والحالة التي يكون عليها الإنسان مطيعًا وذليلًا أمام دائنه إزاء شأن ما، ينتظر منه الجزاء حسب أعماله وأفعاله (النشار، 2018، صفحة 155).

ومن منظور آخر فإن الدين هو تَفكرٌ في كل ما يأبى عن العقل والتفكير الواضح، إذ يقول الفيلسوف ومؤرخ الأديان الألماني ماكس مولر: « إن الدين هو كدحٌ من أجل تصور ما لا يمكن تصوره، وقول ما لا يمكن التعبير عنه، بل إنه شوقٌ إلى اللانهائي » (السواح، دين الانسان بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني، 2022، صفحة 27)، ويذهب عالم الأديان والأثروبولوجيا البريطاني "فرانك جيفونز" إلى أن الدين هو اشتراط الحياة الإنسانية بإحساس الاتصال بين العقل الإنساني وعقلٍ خفيٍ يتحكم بالكون، وبذلك يمكن القول بأن الدين هو عملية استرضاء وطلب عون قوى خفية أعلى قدرة من قدرة الإنسان، يُعتقد بأنها تسيطر على الطبيعة وتتحكم في حياة الإنسان (Jevons, 1896, p. 25).

وبالانتقال من المقاربة الفلسفية لمفهوم الدين إلى المقاربة اللغوية نجد أن كلمة الدين يقابلها في اللغتين الإنجليزية والفرنسية لفظ (Religion)، وهو لفظ ذو أصل لاتيني مشتق من كلمة (Religio) ، والتي كانت تُستعمل للدلالة على شعور الإنسان الممزوج بالرهبة والخشية وتأنيب الضمير تجاه واجب ما نحو الآلهة (النشار، 2018، صفحة 156).

من خلال هذه التعريفات والبحث الذي نحن بصدد دراسته يمكن القول أن مفهوم الدين يُفهم بوصفه على أنه تجربة ذاتية داخلية يعيشها الإنسان، إذ تنطلق من إحساس فردي عميق بالعلاقة مع ما يُعدّ إلهيًا، ثم يتجسّد في شكل تصوّرات وأفكار قد تتطوّر لاحقًا إلى معتقدات منظّمة، فهو يقوم أساسًا على الوعي الباطني والتجربة الشعورية التي تمنح الإنسان معنًى لوجوده.

ب- الرمزية الدينية: تُشتق الرمزية الدينية في اللغة من الفعل رمز، يرمز، رمزًا، بمعنى أشار ودّل أو أومأ إلى شيء ما بطريقة غير مباشرة، أما اصطلاحًا فهي مجموعة من الرموز والإشارات التي تُستخدم للدلالة على معانٍ تتجاوز مدلولها الظاهري، إذ يستخدمها الدين للتمييز بين الأشياء والأشخاص والأماكن التي تكون مقدسة أو غير مقدسة، وكذلك تستخدم هذه الرمزية الدينية لتنظيم حياة الجماعة وللتعبير عن أفكارهم ومعتقداتهم، وبهذا يمكن القول أن الرمزية الدينية هي استعمال رموز وعلامات ذات معنى ديني مقدس، تساعد في التعبير عن الإيمان والاعتقاد المشترك لشعوب وحضارات مختلفة (عماد، 2006، الصفحات 175-176).

يتضح جليًا أن الرمزية الدينية ليست مجرد أسلوب تعبيري فحسب، بل إنها تمثل آلية إنسانية أساسية لإنتاج معنًا حول معتقد أو فكرة ما، والتي تسمح بتشكيل الوعي العقائدي الجماعي داخل

تلك المجتمعات، إذ تساهم في ترسيخ الهوية المشتركة لشعوب حضارة ما، كما تعمل على ضبط سلوكهم الديني وتوجيه ممارساتهم الشعائرية، بالإضافة إلى تحويل المعتقدات المجردة إلى معانٍ ملموسة قابلة للإدراك والتداول داخل هذه الشعوب والحضارات، الأمر الذي يضمن استمرارية هذه المعتقدات وانتقالها عبر الأجيال (عماد، 2006، صفحة 169).

2-1: مفهوم الإيمان والمقدس:

أ- الإيمان: يُعرَّف الإيمان في اللغة بعدة دلالات متقاربة تدور في مجملها حول معنى التصديق واليقين، فقد ذكر ابن حجر العسقلاني بأن الإيمان هو اليقين والتصديق، ويُقال آمن به أي صدقه، ولفظ الإيمان مشتقٌ من الأمن والأمان، غير أنه يوجد اختلاف في مدلول كل من الأمن والتصديق من حيث الاستعمال اللغوي، إذ يرتبط الإيمان بالاطمئنان الداخلي في حين يُركز التصديق على الاقتناع العقلي (العسقلاني، 2018، الصفحات 45-46).

أما الزبيدي فيذكر أن الإيمان في اللغة يدل على الثقة والاعتراف والتصديق، ويقابله التكذيب مؤكدًا بذلك أن أصل الإيمان يكمن بالدخول في الصدق والإقرار به، وهو ما يُكمّل المفهوم الذي أشار إليه ابن حجر، والذي يُظهر أن الإيمان كمفهوم يجمع بين التصديق العقلي والاطمئنان القلبي في اللغة (الزبيدي، 2001، الصفحات 185-186).

أما الإيمان اصطلاحًا فهو التصديق الثابت الذي لا شك فيه ولا تردد، وهو ما يجزم به الإنسان في قلبه من اعتقادٍ يقيني وثابت تجاه أمرٍ ما، إذ يطمئن إليه القلب ويستقر فيه استقرارًا تامًا، فيحصل به الأمان والطمأنينة النفسية، كما يقوم هذا التصديق على الإذعان والقبول لما يعتقده الإنسان، إذ يغدوا ذلك الاعتقاد راسخًا في نفسه ومؤثرًا في سلوكه ومتحكمًا في تصرفاته (الزبيدي، 2001، صفحة 186).

ب- المقدس: جاء في لسان العرب لابن منظور أن المقدس لغة هو الطهارة، والتقديس هو التطهير والتبرك (الدين، 2000، صفحة 168)، أما في المعجم الوجيز للغة العربية فنجد أن المقدس يعني المبارك، والقداسة هي الطهر والبركة، يقال تقدّس أي تطهر (العربية، 1994، الصفحات 492-493)، وفي هذا الجانب فإن عكس القداسة ليس بالنجس أو المدنس، وإنما عكسها الدنيوي أي ما يرتبط بالدنيا والفناء (إلياده، 2007، صفحة 352).

ولو نظرنا إلى كلمة مقدس في أصلها اللغوي، فإننا نجدها قد أُخذت من الأصل اليوناني وبالتحديد من كلمة (Sak) والتي كانت تشير إلى الكيس أو الحقيبة المصنوعة من وبر الماعز، وقد كانت تستخدم في تصفية المياه من الدنس، أما بالنسبة للغة الفرنسية فنجد لفظ (Sacré) ومعناها الشيء

المميز والمستبعد عن الاستعمال العادي، وهو لفظ مأخوذ من اللغة اللاتينية (Sacer) والتي تعني الموهوب للآلهة (ريفير، 2015، صفحة 40).

ومن خلال هذه التعريفات نستنتج أن مفهوم المقدس اصطلاحًا هو كل ما يتصف بالتعظيم والتنزيه ويكون خاليًا من النقص والعيب، لذلك يُحاط بالاحترام والتبجيل، وفي السياق الديني عند الإنسان القديم يرتبط بالآلهة وصفاتها التي تدل على القوة والكمال والتعظيم، والشيء المقدس هو ما يكون له ارتباطٌ أو صلةٌ بمصدر القداسة، وفي المجتمعات القديمة كان هذا المصدر هو الآلهة والأرواح والكائنات الخارقة للطبيعة حسب ما كان سائدًا في تلك الفترة (إلياده، 2007، صفحة 352).

2- الإنسان والطبيعة كمصدر للفكر الإلـــهي:

2-1: العلاقة بين الإنسان والظواهر الطبيعية:

لا يمكن أن تكون فكرة الأديان قد انبثقت فجأة من العدم بل لابد من وجود جذور تاريخية لها في الثقافة الإنسانية، وفي واقع الأمر هناك ظاهرة قد عانى منها الإنسان القديم، إذ تمثلت هذه الظاهرة في أعماق نفسه و بإحساسه الأول في مواجهة ما يحيط به، فقد وجد هذا الفرد نفسه تحت قوة هذا الإحساس الذي لم يتمكن من التحكم فيه ولا حتى توجيهه، نظرًا لصعوبة فهم الظواهر المحيطة به (السواح، مغامرة العقل الأول دراسة في الأسطورة، 1996، صفحة 36).

توجد العديد من الروايات ووجهات النظر المختلفة حول علاقة الإنسان القديم بالظواهر المحيطة به ومدى تأثره بها في تصور فكرة الإله لديه، إذ يعتقد العالم الأسكتلندي "آندرو لانج" (Andrew Lang) عالم الأنثروبولوجيا أن الإيمان الذي انبثق لدى الإنسان القديم اتجاه وجود آلهة في هذا الكون كان نتيجة لرغبة منه في إيجاد سبب منطقي وتفسير عقلي لهذا العالم الذي وجد به، وكذا التغيرات المحيطة به (ريفير، 2015، الصفحات 36-37).

وقد سعى هذا الإنسان منذ فجر التاريخ إلى فهم هذه التغيرات خاصة التي ارتبطت بالطبيعية، محاولًا بذلك تفسير ما عجز عن إدراك أسبابه بعقله وأدواته المحدودة، فقد وجد نفسه وحسب اعتقاده أنه في مواجهة قوى كبرى تفوق قدرته على الفهم والسيطرة، وهي ظواهر بدت له غامضة ومهيبة في آن واحد، وأمام هذا العجز المعرفي أخذ الإنسان القديم يبحث عن تفسيرات تمنح لهذه الظواهر معنى ودلالة، فمال إلى تصورها بوصفها قوى حية تمتلك إرادة وتأثيرًا في مجرى حياته (Jevons, 1896, p. 22).

وهذا التصور يبدوا بوضوح في موقف الإنسان البدائي الذي كان عندما يرى الصواعق في السماء ويسمع صوت الرعد القوي يعتقد في نفسه أن هناك شيئًا خفيًا أكبر قوة منه، إذ لم يكن يمتلك في تلك المرحلة المعرفة الكافية على تفسير تلك التغيرات المناخية البسيطة، فما كان عليه إلّا

أن يربطها بقدرة أعلى من قدرته، فخلق فكرة وجود الآلهة (السواح، دين الانسان بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني، 2022، صفحة 36).

وبذلك كانت الطبيعة بما تحمله من قوى خفية وتأثير مباشر في حياته سبيلًا لنسج تصوراته الدينية وبناء معتقداته التي منحت لهذه الظواهر معنى القداسة، فعلى سبيل المثال لمّا لاحظ المصريون القدماء الخصوبة الكبيرة لأرضهم، وفيضان النيل الذي كان ينعش محاصيلهم الزراعية بحثوا جليًا في أسباب هذه الخصوبة، ولأن علمهم كان محدودًا في تلك الفترة، ربطوا هذه الظاهرة الطبيعية بقوى خفية، واعتقدوا أن هذا الأمر تتحكم به آلهة، حتى أنهم خصصوا اسمًا لهذا الإله وسموه بالإله "حابي" وهو إله نهر النيل والفيضان السنوي (بارندر، 1993، صفحة 38).

استمرت هذه التفسيرات لدى الشعوب القديمة وتنوعت وتعددت بتعدد مفاهيمهم وآرائهم، خاصة لدى السومريين والإغريق وحتى الفراعنة، الذين فسروا كل الظواهر الطبيعية المحيطة بهم تفسيرا روحيًا وربطوها بالآلهة، لكن لو أردنا البحث عن البدايات الأولى لهذه الفكرة وانتقلنا إلى ما قبل هذه الحضارات وصولًا إلى الإنسان البدائي الأول الذي عُرف بإنسان الباليوليت الشبيه بالبشر، فإن هذا المعتقد بوجود آلهة وتحكمها في الطبيعة لم يكن معروفًا لديه، وهذا راجعٌ إلى أن وسطه الفكري كان محدودًا، ولم يتطور ليصل إلى فكرة التدبر في الآلهة والدين، على عكس إنسان النياندرتال الذي أتى بعده بمدة طويلة، إذ تشير بعض الآثار المادية وإن كانت قليلة، إلى أن هذا الإنسان عرف الحياة الروحية بشكل نسبي وبسيط (السواح، دين الانسان بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني، 2022، الصفحات 125-126).

ومن خلال هذا يمكن أن نقول أن التصور الديني وبداية نشأته كانت مع إنسان النياندرتال، إذ بدأت عنده ملامح الحسّ الديني بالظهور في إطارٍ بدائيٍ محدود، غير أن هذه البدايات تبقى أولية وبسيطة ولا ترقى إلى مفهوم الدين المنظَّم كما ستعرفه الحضارات اللاحقة.

2-2: الميثولوجيا السومرية وفكرة خلق الإنسان:

لقد كان الإنسان السومري يبحث عن تفسيرات لوجوده على هذه الأرض، ونظرًا لقدراته المحدودة في ذلك الوقت ربط وجوده بفكرة وجود آلهة تخيلها على أنها هي من أوجدته، ولأن تلك الفترة تزامنت مع اختراع الكتابة وبداية التدوين بدأ هذا الإنسان بالتعبير عن هذه الأفكار البسيطة على شكل أساطير، ونعني هنا بالأساطير تلك الحكايات والروايات ذات الطابع الخيالي التي نسجها الإنسان لتفسير ظواهر الوجود، والتي تتناول في أغلب مضامينها مسألة نشأة البشر وبدايات العالم، إذ تؤدي الآلهة فيها دور المنشأ والمؤسس الأول للحياة (إلياده، 2007، صفحة 357).

كانت الأساطير بالنسبة للشعوب القديمة مقنعة لدرجة أنها كانت تُعتبر حقائق لا تقبل الشك أو النقد (Jevons, 1896, p. 250)، فعلى سبيل المثال كانت معظم الأساطير السومرية تحكي عن بدايات الأشياء والدور الأساسِ في هذه الحياة، وتوضح أن كل ما يستعمله الإنسان ويستفيد منه في حياته اليومية كالزراعة وأدواتها ما هي إلا نموذج مقدسٌ صنعته الآلهة وأوحت به إلى البشر، فهي في نظرهم تقليدٌ أولي لما قامت به الآلهة، وهذا حسب ما ورد في أحد النصوص الدينية المقدسة التي عثر عليها في مدينة بابل إذ وجدت العبارة التالية: « هذا ما قامت به الآلهة وهذا ما سيقوم به الإنسان » (السواح، مغامرة العقل الأول دراسة في الأسطورة، 1996، صفحة 29).

وتُعّد الأسطورة المتعلقة بخلق البشر هي أول أسطورة خطتها يد الإنسان في هذا الجانب، وهي من أكثر الأساطير الشائعة والأكثر انتشارًا، والتي تشير إلى أن الآلهة هيأت الأرض لحياة الإنسان فنظمت دورة الليل والنهار وحركة الفصول، وخلقت الحيوانات على أشكالها وأنواعها، وبعد ذلك أمرت الأرض فأخرجت زرعها وشجرها، ثم خلقت الإنسان وجعلته وسيلة ليقدم لها طعامها وشرابها ويزرع لها أرضها (ريفير، 2015، الصفحات 114-115).

كما تذكر هذه الأساطير وبوضوح أن الإنسان خُلق من طين وأن الآلهة صورته على صورتها وهيئتها، وهذا الاعتقاد ساد في الحضارة السومرية والحضارات التي تلتها مثل البابلية وغيرهما وكان هذا نتيجة لتأثرهم بالطين، إذ كانت هذه المادة الأكثر حضورًا في حياتهم اليومية، والتي استخدموها في بناء البيوت وصناعة الأواني وحتى في الكتابة على الألواح الطينية، لذلك أصبح الطين في اعتقادهم رمزًا للمادة الأولى التي تتشكل منها الأشياء والمادة التي تنطلق منها الحياة، فربطوها بفكرة الخلق والوجود (السواح، مغامرة العقل الأول دراسة في الأسطورة، 1996، صفحة 47).

ولم تقتصر هذه الفكرة على الحضارة السومرية فقط، بل تسربت عناصرها الرئيسة إلى الكثير من الحضارات الأخرى كالحضارة الإغريقية، والتي تذكر أساطيرها أيضًا أن الإله "بروميثيوس" مزج التراب بالماء وشكل به إنسانًا، وعندما إستوى هذا الإنسان قائمًا نفخت الإلهة "آثينا" الروح فيه، ثم راح الإله "بروميثيوس" يزود هذا الإنسان بالوسائل التي تعينه وتساعده على البقاء والاستمرار في هذه الأرض، وكذلك الأمر في الأساطير الهندية القديمة نجد أيضًا فكرة التكوين الطيني ونفخة الحياة التي تهبُ للشكل الجامد روحًا وحركة من قبل الآلهة (السواح، مغامرة العقل الأول دراسة في الأسطورة، 1996، الصفحات 47-48).

كذلك من الأفكار والأساطير التي تسربت عن السومريين هي فكرة الخلق الأول للأرض، إذ كان يُعتقد أن الأرض والسماء كانتا متحدتين مع بعض وأن الآلهة هي التي فرقتهم، وهو ما نجده مدونًا في أساطير المصريين القدماء مثل أسطورة "هليوبوليس"، والتي تقول أن الإله الأول الخالق هو "آتوم"

الذي اتحد مع إله الشمس "رع" وأنجبوا باقي الآلهة، وهذه الآلهة هي التي تتحكم في الطبيعة مثل الإله "شو" إله الهواء، والإله "تفنوت" إله الرطوبة وغيرهم من الآلهة، ويسود المعتقد عندهم بأن هذه الآلهة هي من قررت فصل السماء عن الأرض تمهيدًا وتجهيزًا لظهور الإنسان عليها، وهو ما كان معتقدًا وسائدًا لدى أساطير السومريين (بارندر، 1993، صفحة 37).

3- الرمزية الدينية للطبيعة في معتقدات الإنسان القديم:

3-1: رمزية الأرض والسماء:

كانت الأرض بمثابة مركزٍ للحياة الروحية في تصورات الإنسان القديم، إذ ارتبطت في مختلف الثقافات القديمة بمعاني الخصب والعطاء، ومنها تنبثق مظاهر الحياة التي تضمن بقاءه واستقراره، الأمر الذي جعله ينظر إليها بوصفها قوة حية قادرة على المنح والعطاء، لذلك حظيت الأرض والتربة الخصبة بمكانة مقدسة في معتقده، ومن هذا المنطلق سعى الإنسان القديم إلى كسب رضا الأرض والسماء معًا باعتبارهما مصدر حياته (Jevons, 1896, p. 228).

لقد نظر الإنسان القديم إلى الأرض بوصفها الإله الأم التي تمنح الحياة وتحتضن الكائنات في نشأتها ونموها، ومن هذا التصور نشأت العديد من الطقوس والمعتقدات التي تمجد الأرض وتربطها بدورات الطبيعة والخصوبة، كالزراعة والإنبات وتجدد الفصول مما جعلها رمزًا للقوة والوجود (السواح، مغامرة العقل الأول دراسة في الأسطورة، 1996، صفحة 101).

لقد تجلّى هذا التصور الذي يمنح الأرض طابع الأمومة والقداسة في عدد من الحضارات القديمة ومن أبرزها الحضارة الإغريقية، إذ اعتبر الإغريق أن كل من الأرض والسماء مظهرين أساسيين للقوة الكونية ويتمتعان بقداسة خاصة في بنية العالم، وتذكر أساطيرهم أن الأرض انفصلت عن السماء في سياق الصراع بين الآلهة، حين أقدم الإله "كرونوس" على فصل أبيه "أورانوس" عن الأرض، في حادثة أسطورية تجسد بداية تشكّل الحياة، وهذا ما تناقلته الأساطير السومرية أيضًا والتي يُعتقد أن الإغريق نقلوا منها (ريفير، 2015، صفحة 51).

في حين لو انتقلنا إلى الحضارات التي كانت قائمة في أسيا وبالتحديد الحضارة الصينية - 1500 سنة ق م، نجد أن السماء كان لها مكانة مقدسة أكثر من الأرض، واعتبروا أن قدرة الآلهة تتمثل في قوة السماء التي عبدوها، وكان الاسم الذي يطلق على أُلوهية السماء هو "شانج-تي" والذي يعني الحاكم الأعلى أو الروح الكبرى (السواح، دين الانسان بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني، 2022، الصفحات 232-233).

3-2: رمزية الشمس والقمر:

شكّلت الأجرام السماوية منذ أقدم العصور محورًا أساسيًا في بروز الخيال الديني لدى الإنسان القديم، إذ بدت له السماء مجالًا للقوى العليا المتحكمة في الكون، ومن بين هذه الأجرام احتلت الشمس والقمر مكانة رمزية خاصة لما لهما من حضور دائم، فنُسجت حولهما تصورات أسطورية منحت لهما دلالات تتجاوز طبيعتهما المادية، وقد كانت المجتمعات والشعوب القديمة تعتبر أن القمر سابقٌ لوجود الشمس، واعتبروه أنه هو أب الشمس، لذلك قامت تلك المجتمعات بتقديس القمر واعتبرته رمزا للأم الكبرى وهو بذلك رمزٌ للأنثى، كما اعتبروا الشمس رمزا للذكر وقدسوها واعتبروها بمثابة إله السماء الأعلى (السواح، مغامرة العقل الأول دراسة في الأسطورة، 1996، صفحة 42).

وعندما تأمل الإنسان القديم الشمس وشعر بحرارتها، ربط بينها وبين النار باعتبار أن كليهما مصدرًا للحرارة والضوء، ومن هذا التشابه نشأ لديه اعتقادٌ بإمكانية التقرب والتواصل مع الشمس، التي نظر إليها بوصفها إلهًا، فكان يقدم القرابين ويُلقيها في ألسنة اللهب معتقدًا أن النار تحملها إلى الشمس وتقربه من هذه القوة التي تتحكم في الحياة على الأرض (Jevons, 1896, p. 230).

وعند النظر إلى الأساطير البابلية نجد أن الإله "مردوخ" الذي كان يُعتبر أكبر الآلهة آنذاك قد خلق الشمس والقمر ومنحهما أدوارًا محددة في تنظيم الكون، فجعل القمر هو المنظم لشهور السنة وأمره بالسطوع ليلًا، وقسم الوقت وجزءه إلى أشهر وأيام، بينما جعل الشمس علامة لتعاقب الأيام على الأرض وأمرها بالسطوع نهارًا، ومن خلال هذه الإجراءات وضع الإله "مردوخ" معايير زمنية ونظامية للكون، وهو ما أصبح لاحقًا مرجعًا لدى العديد من الحضارات التي تبنّت هذه الأسس والمعتقدات وأدخلتها في حياتها اليومية والدينية (السواح، مغامرة العقل الأول دراسة في الأسطورة، 1996، صفحة 147).

في حين لو انتقلنا إلى الحضارة المصرية القديمة، فنجد أن القمر قد حظي باهتمام واضح وبارز في النقوش والرسوم الجدارية، وتم اتخاذه أيضًا مقياسًا للزمن ولحساب المواسم الزراعية، كما عُبِد وارتبط بالعديد من الأساطير، وعرف باسم الإله "يرو"، وهذا ما يعكس دور الأجرام السماوية في الحياة الدينية لمصر القديمة (قديم، 2019، صفحة 342).

3-3: رمزية الجبال والكهوف:

اعتُبِرت الجبال في الحضارات القديمة أماكن مقدسة، وهذا التقديس ما هو نابعٌ إلا من الخوف من علوها وشموخها، إذ كان يعتقد أن قمم الجبال قريبة من القمر وأنها مسكنٌ للآلهة، فالجبال تعتبر من أوائل الظواهر التي قدسها الإنسان القديم، باعتبار أنها تسهل عملية الاتصال بينه

وبين الآلهة الموجودة في السماء، وقد كان قديمًا يتم اختيار هذه الجبال خصيصًا لإقامة بعض الطقوس (قديم، 2019، صفحة 335).

انعكس تصور الإغريق للطبيعة في مِخيالهم الديني ليشمل مختلف عناصر الكون، ولأن الطبيعة عندهم كانت مفعمة بالحياة ساد في اعتقادهم بأن الجبال هي عرشٌ لآلهة السماء، ولأن معظم ينابيع المياه كان مصدرها الرئيس هو الجبال فإن المتعبدين كانوا يصعدون إلى قمم هذه الجبال متذرعين للآلهة حتى تزودهم بالمياه (بارندر، 1993، صفحة 54).

لقد قدّس الإنسان القديم الماء أيضًا لما له من أهمية بالغة في حياته، إذ اعتبره المصدر الأساسي للحياة واستمرارها، سواء بالنسبة له أو لمحاصيله الزراعية وخصوبة أرضه، ولهذا اكتسب الماء مكانة رمزية مقدسة في تصوراته الدينية، فقام ذلك الإنسان بتقديس مياه الأمطار والأنهار وحتى الينابيع المتدفقة من الجبال، وقد كان جفاف هذه الينابيع أو انقطاع المطر يُفسَّر في نظره بوصفه علامة على غضب الآلهة أو عقابًا إلهيًا حل به (قديم، 2019، صفحة 337).

4 - الطقوس والسلوكيات الدينية المبكرة:

4-1: بداية الاعتقاد بالروح والعالم الآخر:

شكل الموت بالنسبة للإنسان القديم ظاهرة غامضة تثير في نفسه الخوف، فعندما وجد نفسه عاجزًا أمام هذه الحتمية التي تلازمه في كل مراحل حياته والتي لا سبيل للفرار منها، حاول أن يمنح الموت معنًا ضمن تصوراته المحدودة، وبذلك ربط هذه الظاهرة بوجود قوى خفية أو قدرات خارقة تتحكم في مصير الإنسان بعد مفارقته للحياة، ومن هنا تشكّلت عنده مجموعة من التصوّرات والاعتقادات عن وجود عالمٍ آخر مغاير لعالمه ينتقل إليه الإنسان بعد موته، وأن هذا العالم المغاير تحكمه قوى وآلهة خاصة به، هذا ما أسهم لاحقًا في نشوء تصورات دينية أسطورية حول فكرة الحياة الأخرى أو حياة ما بعد الموت (ريفير، 2015، صفحة 55).

ومن خلال مراقبة هذا الإنسان لظاهرة الأحلام التي تحصل له وهو نائم، إذ يرى أن أقاربه وأصدقائه الذين ماتوا منذ زمن بعيد يحضرون إلى جانبه، ويتكلمون معه ويتحركون ويرى خيالهم يطوف حوله، توصل إلى فكرة مفادها أنه اثنان في شخص واحد، فبينما يستلقي جسده الملموس على الفراش للنوم فإن روحه تغادر لتطير وتتحرك وتلتقي مع الآخرين بحرية تامة، وبهذا فإن أول الأفكار الدينية قد تولدت عند الإنسان الأول من إحساسه بحضور بعد آخر للوجود يتخلل عالمنا ويفارقه في الوقت نفسه (السواح، مغامرة العقل الأول دراسة في الأسطورة، 1996، صفحة 34).

لم يكتف الإنسان القديم بتخيّل هذا العالم، بل عمل أيضًا على تنظيمه ضمن منظومة أسطورية خيالية، فأنشأ له آلهة ومنحها أسماء وصفات محددة، وجعلها مسئولة عن تدبير شؤون

الموتى والعالم السفلي، ومن بين هذه التصورات ما نجده في الميثولوجيا السومرية، إذ يظهر الإله "كور" بوصفه إله العالم السفلي أو عالم الموتى، وهو إله المكان الذي اعتُقد أن الأرواح تنتقل إليه بعد الموت (السواح، مغامرة العقل الأول دراسة في الأسطورة، 1996، الصفحات 34-35).

2- 4: تطور الطقوس الجنائزية في الفكر الديني القديم:

إن الحس الديني ليس بظاهرة يمكن مراقبتها أو وصفها من الخارج فقط، فالباحث لا يصل إليها إلا بالتنقيب عنها في ذاكرة هذا الإنسان وسيرته والآثار التي تركها، فكما ذكرنا سابقًا أن فكرة التصور والاعتقاد الديني بدأت مع إنسان نياندرتال والذي كان أول نوع بشري اعتنى بدفن موتاه في الكهوف، وفق طقوس تقليدية بسيطة في الدفن تمثلت في طي الجثة حتى تلامس الركبتين البطن ثم وضعها في حفرة صغيرة، وهذا ما عُثر عليه الباحثون في الكهوف والمغارات، بالإضافة لبعض الهدايا الجنائزية البسيطة كإحاطة الجثة بقرون الحيوانات أو ببعض الحجارة، بالإضافة لمئات المستحثات والأقراص المدورة المصنوعة من الحجر والعاج التي وجدت داخل القبور وبشكل خاص بجوار الجماجم (السواح، دين الانسان بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني، 2022، الصفحات 126-127).

وإذا كانت هذه الممارسات الجنائزية البسيطة تمثل إحدى البدايات الأولى لتجلّي الحسّ الديني لدى الإنسان البدائي، فإن هذا الحسّ لم يلبث أن تطوّر مع نشوء الحضارات القديمة، حتى اتخذ أشكالًا أكثر تنظيمًا وتعقيدًا، وظهر ذلك بوضوح في الطقوس والشعائر التي مارستها الشعوب القديمة داخل معابدها وأماكنها المقدسة، بما في ذلك الطقوس الجنائزية التي لم تعد مجرد دفن للجسد بل أصبحت تعبيرًا عن المعتقدات حول فكرة الحياة والموت والآخرة، كما هو الحال عند المصريين القدماء، إذ كانت الأهرامات تعد في الأساس مقابر ملكية يحتفظ فيها بجسد الملك وروحه لضمان انتقال الملك إلى الحياة الأخرى (بارندر، 1993، صفحة 32).

لقد حفظت لنا أوراق البردي في الحضارة المصرية العديد من المعلومات حول الطقوس والسلوكيات الدينية القائمة عند المصريين القدماء، كما احتفظت النقوش المنحوتة على الجدران مجموعة من التراتيل والتعاويذ الخاصة بدفن الموتى، وأفكار عن حياة ما بعد الموت، فلو نظرنا إلى أهرامات الأسرة الخامسة والسادسة في منطقة "سقارة" والتي يوجد بها أقدم هرم "هرم ونيس" والذي يعود تاريخه إلى 2350 سنة ق م، نلاحظ بأن جدرانه مغطاة بنصوص هيروغليفية تتحدث عن حياة ما بعد الموت، كما كُتبت عليه العديد من الأساطير والطقوس الجنائزية التي استخدمها المصريون القدماء خلال تلك الفترة، وقد سميت هذه الكتابات بمتون الأهرام، وهي تشكل أقدم مجموعة كاملة تتعلق بالديانة المصرية القديمة (بارندر، 1993، الصفحات 33-34).

خاتمة:

توضح الدراسة أن الإنسان القديم بدأ إدراكه الديني من رهبة الطبيعة، إذ كانت الظواهر الطبيعية المهيبة مثل الرعد والبرق والفيضانات مصدر خوف ودهشة، وبالتالي دفعه هذا الخوف إلى تصور وجود قوى خارقة تفوق قدراته، ومن خلال ذلك بدأت تتشكل لديه الاعتقادات الأولى للفكر الديني الذي ربط الإنسان بالآلهة، وهكذا شهد الإنسان تحولًا تدريجيًا في إدراكه فبدلا من مواجهة الطبيعة ومحاولة فهمها بدأ بتقديسها ومنحها مكانة مقدسة في مخيلته.

تبين أن الميثولوجيا والأساطير قد لعبت دورًا محوريًا في تفسير أصل الإنسان والكون، إذ استخدم الإنسان القديم الحكايات الرمزية والمتمثلة في الأساطير لربط الظواهر الطبيعية بالقوى الإلهية، هذا ما أسهم في ترسيخ فكرة المقدس وإضفاء معنى على الحياة والوجود، وإن هذه الأساطير لم تكن مجرد حكايات، بل كانت وسيلة منه لتفسير وفهم العالم المحيط به، وإضفاء نظام معنوي يفسر الظواهر غير المفهومة آنذاك.

أظهرت الرمزية الدينية لعناصر الطبيعة مثل الأرض والسماء والشمس والقمر والجبال أنها كانت آلية لتكريس القداسة في الحياة اليومية للإنسان القديم، فقد حول الإنسان هذه العناصر إلى رموز مقدسة، واستخدمها في تنظيم الطقوس والممارسات الدينية التي صنعها من وحي خياله، ما عزز تصوراته عن الإله ومنحه القدرة على التحكم في المجتمع.

أكدت الدراسة أن الطقوس والسلوكيات الدينية المبكرة التي قام بها الإنسان القديم، بما في ذلك الاعتقاد بالروح والعالم الآخر والطقوس الجنائزية مثلت تجسيدًا عمليًا لفكرة وجود الإله، فقد عبّر هذا الإنسان من خلالها عن إيمانه بالقوى العليا، وسعى من خلال هذه الطقوس إلى التواصل مع العالم الآخر وتنظيم حياته الاجتماعية والدينية، بما يعكس تحول الخوف البدائي من الطبيعة إلى الممارسة الدينية المتكاملة، ورغم التطور العلمي والمعرفي الذي عرفته المجتمعات الإنسانية الحديثة إلا أن بعض من هذه الاعتقادات لازالت راسخة في ثقافة وممارسات بعض الشعوب في زماننا.

وأخيرًا نستنتج أن نشأة فكرة الإله لدى الشعوب القديمة كانت نتاجًا لتصورات الإنسان وتأمله في الطبيعة وبما يحيط به، فقد استُمدت هذه الفكرة من رهبة الإنسان أمام الظواهر الطبيعية وعدم إيجاد تفسير لها، وتحولت تدريجيًا إلى تخيل وجود قوى عليا تتحكم في الكون، وبذلك كانت فكرة الإله تصورًا فكريًا مجردًا نشأ من محاولة الإنسان القديم تفسير الظواهر التي لم يكن قادرًا على فهمها، وهو ما شكل أساسًا لتطور المعتقدات الدينية لاحقًا، دون أن يعني ذلك بالضرورة وجود هذه القوى على أرض الواقع.

قائمة المصادر والمراجع:

إبن حجر العسقلاني. (2018). *فتح الباري بشرح صحيح البخاري* (الإصدار دط). لبنان : دار المعرفة للنشر .

إبن منظور جمال الدين. (2000). *لسان العرب* (المجلد 6). بيروت: دار صادر.

الطيب قديم. (2019). المظاهر الطبيعية والحيوانات في المعتقدات الوثنية بالمغرب القديم. *مجلة العلوم الإسلامية والحضارة ، 4* (2)، 331-353.

جفري بارندر. (1993). *المعتقدات الدينية لدى الشعوب* (الإصدار 1). (إمام عبد الفتاح إمام، المترجمون) الكويت: عالم المعرفة.

عبد الغني عماد. (2006). *سوسيولوجيا الثقافة المفاهيم والإشكاليات من الحداثة إلى العولمة* . بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية .

فراس السواح. (2022). *دين الانسان بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني* (الإصدار 1). مصر: مؤسسة هنداوي للنشر.

فراس السواح. (1996). *مغامرة العقل الأول دراسة في الأسطورة* (الإصدار 11). سوريا: دار علاء الدين.

كلود ريفير. (2015). *الأنثروبولوجيا الاجتماعية للأديان* (الإصدار 1). (أسامة نبيل، المترجمون) مصر: المركز القومي للترجمة والنشر.

مجمع اللغة العربية. (1994). *المعجم الوجيز*. مصر : المطبعة الأميرية .

محمد مرتضى الزبيدي. (2001). *تاج العروس من جواهر القاموس* (الإصدار 1، المجلد 34). الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون.

مصطفى النشار. (2018). مفهوم الدين وتصنيف الأديان التحليل العلمي والرؤى الفلسفية. *مجلة الإستغراب ، 04* (13)، 154-176.

ميرتشيا إلياده. (2007). *البحث عن التاريخ والمعنى في الدين* (الإصدار 1). (سعود المولى، المترجمون) بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية .

Jevons, F. B. (1896). *An Introduction to the History of Religion* (éd. 1). London: Methuen and Company.

قائمة المصادر والمراجع المترجمة باللغة الإنجليزية:

- Ibn Mandour, Jamal adin. (2000). Lisan al Arab. (1st ed.). Lebanon: Dar Sader.

- Ibn Hajar Asqalani. (2018). Fath al Bari bi Sharh Sahih al Bukhari. Lebanon: Dar al Maarifa.

- Zabidi, Mohammad Murtada. (2001). Taj al 'Arus min Jawahir al Qamus. (Vol. 34). (1st ed.). Kuwait: National Council for Culture, Arts and Letters.
- Arabic Language Academy. (1994). Mouajam al Wajiz. (Vol. 1). Egypt: Arabic Language Academy.
- Eliade, Mircea. (1969). The Search for History and Meaning in Religion. (1st ed). (Translated, Saud Mawla, 2007). Lebanon: Center for Arab Unity Studies.
- Suwaḥ, Firas. (1996). The Adventure of the First Mind: A Study in Myth. (11th ed). Syria: Dar Alaa Adin.
- Suwaḥ, Firas. (2022). The Religion of Man: A Study on the Nature of Religion and the Origin of Religious Motivation. (1st ed.). Egypt: Hindawi Foundation.
- Rivière, Claude. (1997). The Social Anthropology of Religions. (1st ed). (Translated, Osama Nabil, 2015). Egypt: National Center.
- Parrinder, Geoffrey. (1993). Religious Beliefs among Different Peoples. (1st ed). (Translated by Imam Abd al Fattah Imam, 1993). Kuwait: Alem al Maarifa.
- Imad, Abdalghani. (2006). Sociology of Culture: Concepts and Problematic from Modernity to Globalization. (1st ed). Lebanon: Center for Arab Unity Studies.
- The Old Testament, Book of Genesis, Chapter Seven.
- Qadim, T. (2019). Natural Phenomena and Animals in Pagan Beliefs in Ancient Morocco. Journal of Islamic Sciences and Civilization. Vol 4. N2.
- Anashar, M. (2018). The Concept of Religion and the Classification of Religions: Scientific Analysis and Philosophical Perspectives. Journal of Occidentalism. Vol4. No13.
- Jevons, F. B. (1896). *An Introduction to the History of Religion* (éd. 1). London: Methuen and Company.